

قراءة في المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية

محمد العقيد محمد أحمد (*)

■ المخطوطات أنفُس ما اقتنته المكتبات:

المخطوطات من أهم مكونات الشعوب، وأنفس ما اقتنته المكتبات، وأغلى ما احتواه التراث؛ لدلالاتها الحضارية والتاريخية والثقافية.

وإن أعظم تراث معرفي في تاريخ الإنسان هو ما قدمته الحضارة الإسلامية للبشرية، فالمخطوطات الإسلامية تأتي في مقدمة المخطوطات العالمية من حيث العدد والتنوع وقيمة محتوياتها، وتُعد في الوقت الحالي أهم تراث مكتوب في العالم، بل لعله التراث الوحيد الذي بقي محفوظاً بصورة كبيرة قياساً بغيره من التراث في الحضارات الأخرى غير الإسلامية التي اندثرت معالمها.

وهي ترتبط بأوثق مصادر العلم والمعرفة وأعظمها شمولاً وإحاطة، (الوحي الإلهي) وهو ما أكسبها أصالتها، وتميزها في منهجيتها العلمية ومحتوياتها الزاخرة بالعلوم المختلفة والنظريات والإنجازات في شتى المجالات.

لقد «تبه العالم إلى أهمية

التراث العربي الإسلامي من المخطوطات -

١٠ كاتب وباحث سوداني.

وهو ما غفل عنه أصحابه -، وتأسست في جامعات الغرب كراسي الأستاذية والمعاهد المتخصصة لدراسة هذا التراث وأثره على الحضارة العالمية، وجاءت الاعترافات والإشادة بدوره، من ذلك ما كتبه... المستشرق «جورج سارتون ١٨٨٤م - ١٩٥٦م» عن العرب والمسلمين في مؤلفه الكبير (تاريخ العلم) مبرزاً دور الحضارة العربية في التقدم العلمي^(١).

لقد استفاد العالم أجمع مما حوته المخطوطات الإسلامية من مناهج ودراسات قيمة في شتى العلوم والمعارف، أسست لنهضة العلوم الحديثة وتطورها، وبناء الحضارة الإنسانية المعاصرة.

وقد كان لإفريقيا حظ وافر من هذا التراث:



(١) مقدمة دراسات في المخطوطات العربية. د. سماء زكي المحاسني. مكتبة جامعة الملك فهد - ١٩٩٩م.

كذلك؛ فقد ذكر بعض الحفاظ أن زيد بن ثابت أَلَفَ كتاباً في علم الفرائض، وذكر البخاري في صحيحه أن عبد الله بن عمرو كان يكتب الحديث، وذكر «مسلم» كتاباً أَلَفَ في عهد ابن عباس في قضاء عليٍّ^(١)، وكان مما دُون في السنة الأولى للهجرة (وثيقة المدينة)، ورسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك عصره.

بذلك بدأت عملية التدوين، وقامت حركة التأليف الإسلامي العربي، وتفرعت مناهج الكتابة في شتى أنواع العلوم والمعارف، ولم يمض قرن من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى أصبحت صناعة الكتب ومهنة النسخ منتشرة، وقامت تجارة الكتب في كل أنحاء العالم الإسلامي، عبّر المؤرخ «وول ديورانت» عما بلغه الاهتمام بذلك في العصر العباسي بقوله: «لم يبلغ الشغف باقتناء الكتب والمخطوطات في بلد آخر من بلاد العالم - اللهم إلا في بلاد الصين - ما بلغه في بلاد الإسلام في هذه القرون، حين وصل إلى ذروة حياته الثقافية»^(٢).

تناولت المصنفات المخطوطة العربية الإسلامية شتى فروع المعرفة وأنواع العلوم المختلفة، وقامت المكتبات الملكية والعامّة والخاصة في كل مكان، وأصبح المخطوط من الكتب تراثاً متداولاً بين الناس، وتطور كمّاً وكيفاً، حتى وصلت أعداده الملايين، «يقدر المعهد العربي للمخطوطات التابع للجامعة العربية عدد المخطوطات العربية الإسلامية بأربعة ملايين»^(٣)، موزعة في أنحاء متفرقة من العالم، ولكنها بحسب الواقع وما تشير

حيث شارك علماؤها في ازدهار الحضارة الإسلامية، والثقافة العربية، «وكانوا أول من قاموا بتعريب ألسنتهم، وانصهروا في بوتقة الثقافة العربية الإسلامية تماماً حتى أتقنوها وبرعوا فيها، فخلفوا لنا ثروة علمية هائلة عُدّت من عيون التراث العربي الإسلامي، ممثلة في آلاف المخطوطات المكتوبة باللغة العربية في مختلف الفنون والعلوم، ومتفرقة في أنحاء المناطق والأصهار»^(٤)، حتى إنه لا تكاد تخلو حاضرة من حواضر الممالك الإسلامية في إفريقيا من وجود كمٍّ من المخطوطات العربية الإسلامية.

نحاول في هذه العجالة إلقاء الضوء على تراث المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية كمّاً وكيفاً، وتاريخ نشأتها وتطورها، وانتشارها، وحالتها من حيث العناية والاهتمام بها، ومدى أهمية المخطوط العربي الإسلامي الإفريقي، وما يحمله من مؤشرات ودلالات بصفته العنصر الرئيس لهوية القارة المسلمة وانتمائها، وأهم مكونات حضارتها، والمركز الأساس لنهضتها في حاضرها ومستقبلها.

■ التراث العربي الإسلامي.. بداية التدوين والتوثيق؛

بدأت عملية التدوين والتوثيق والتأصيل العلمي والمنهجي والتقييد بالكتابة في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ووُضعت قواعد الرواية في علم الحديث من النظر في حال الرواة وطرق النقل وحال المروي، جاء في كتاب الشيخ طاهر الجزائري (توفية النظر إلى أصول الأثر): «توهم أناس أنه لم يقيد في عصر الصحابة وأوائل عصر التابعين بالكتابة شيء غير الكتاب العزيز، وليس الأمر

(١) التراث الإفريقي العربي بين الاندثار ومحاولات الإنقاذ: الخضر عبد الباقي. موقع الإسلام اليوم <http://www.islamtoday.net>

(٢) توفية النظر، ص ٨.
(٣) وول ديورانت: قصة الحضارة. تعريب أحمد بدران. القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر. ١٩٥٠م، ج ١٣، ص ١٧١.
(٤) التقدير الذي وضعه المعهد العربي للمخطوطات التابع للجامعة العربية (أربعة ملايين) تقدير متواضع؛ وخصوصاً أن بعض المصادر تشير إلى أن هنالك أكثر من ٥ ملايين مخطوطة عربية قديمة وحديثة في مكتبات بلدان غرب إفريقيا وحمداً. انظر تقرير: www.aawsat.com.

إلى بعض تلك الهجرات، وما نتج عنها من بناء بعض المدن الساحلية المهمة، مثل مومباسا وزنجبار وكلوا ومالندي.

إلا أنه يمكن القول - بصورة عامة - أن ما كان قبل الإسلام من هجرات العرب وعلاقاتهم بإفريقيا لم تكن ذات أبعاد حضارية ولم ترتكز إلى أسس دينية أو فكرية عميقة كما كانت بعد الإسلام، فالإسلام وما لازمه من نشاط دعوي وعلمي وحركات جهادية كان المرتكز الأساس الذي أثمر حضارة عربية في إفريقيا، وقام عليه التاريخ الإسلامي لإفريقيا، وبخاصة التاريخ الوسيط لإقليم غرب إفريقيا، فقد كان لنشاط العلماء الدعوي والعلمي دور كبير في صناعة هذا التاريخ. وارتبطت بذلك اللغة العربية بوصفها لغة الإسلام والمفتاح إلى العلوم الإسلامية، وهو ما جعل تعلمها والكتابة بها من الواجبات، ربما اهتداءً بمقولة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تعلموا العربية فإنها من دينكم»؛ فلا غرو أن ترك لنا هؤلاء العلماء تقاليد راسخة وثابتة في مجال التأليف بهذه اللغة^(٤).

■ نشأة المخطوطات الإسلامية العربية في إفريقيا وتطورها،

يمثل دخول الإسلام في إفريقيا البداية الحقيقية لنشأة المخطوطات العربية الإسلامية فيها؛ إذ كان المصدر الرئيس لوجودها وتطورها، وقد ثبت أن تاريخ المخطوط العربي الإسلامي في إفريقيا يعود إلى القرن الأول الهجري، وذلك خلافاً لبعض الدراسات التي ترجعه إلى ما قبل القرن الثالث عشر الميلادي؛ فقد وُجد مخطوط ضمن ما عُثر عليه في

(٤) التراث العربي الإسلامي في شرق إفريقيا وغربها - دراسة مقارنة - بروفيسور الأمين أبو منقة محمد - http://www.mubarak-inst.org/stud_reas/research_view.php?id=97 (بصرف).

إليه بعض البحوث والدراسات فوق ذلك كثيراً؛ فملايين المخطوطات مكنوزة في خزائن خاصة لم يبلغها العدّ والحصر، وبخاصة في إفريقيا، فمدينة تمبكتو Timbuktu في مالي - مثلاً - تزخر بخزائن لمخطوطات لم تر النور بعد، ولا تزال كميات كبيرة منها في منازل متوارثة لقرون طويلة، يقول في ذلك «موريس مورفي» من مكتبة الكونغرس الأمريكي: «إن حوالي مليون مخطوطة موزعة في أنحاء تمبكتو، وربما ثلاثة ملايين مخطوطة في أرجاء إفريقيا الغربية»^(١).

■ التواصل العربي الإفريقي قبل الإسلام وبعده:

عرفت إفريقيا العرب واللغة العربية قبل الإسلام بعدة قرون؛ فقد وصلت بعض القبائل العربية والتجار العرب إلى سواحلها الشرقية، وتوغلوا إلى أجزائها الداخلية، «... ووصلوا إلى بحيرة تشاد ونهري شاري ولوغون جنوبي تشاد وشمالى دولة إفريقيا الوسطى [الحالية] في حقبة ترجع إلى ما قبل الإسلام وما بعده»^(٢)، كما عبروا مضيق باب المنسند منذ أقدم العصور، واكتشفوا البلاد الواقعة على الساحل الشرقي الإفريقي من بلاد الدناقلة (تقع حالياً في شمال السودان) والحبشة شمالاً، وحتى موزمبيق ومدغشقر جنوباً.

وقد اتخذت بعض الهجرات العربية التي تمت في خلال القرن السابع الميلادي شكلاً استيطانياً؛ إذ تشير (مخطوطتا كلوا وباتي)^(٣)

(١) ٤٠٠ مخطوط عربي تنتظر التحقيق بنيجيريا، الخضر عبد الباقي - إسلام أون لاين. نت، ٢٠٠٦/١٩ م، وانظر: مئات الآلاف من المخطوطات الإسلامية المفردة معرضه للضياع في مالي <http://www.alsareha.net/vb/showthread.php?p=701162>

(٢) نشأة الوجود العربي - الإسلامي في وسط إفريقيا - تشاد نمونج. أ.د. عبد السلام إبراهيم داود بغدادي. <http://www.mubarak-inst.org>

(٣) التراث العربي الإسلامي في شرق إفريقيا وغربها: دراسة مقارنة، بروفيسور الأمين أبو منقة محمد - http://www.mubarak-inst.org/stud_reas/research_view.php?id=97

المؤلفات العربية، وكان للمكتب العربية قيمتها، وانتشرت المكتبات العامة والخاصة، وقد أبدع علماء تمبكتو مخطوطات رائعة الجمال باللغة العربية في العلوم الإسلامية واللغة والأدب والرياضيات والطب والشريعة وعلم الفلك وعلم الحيوانات والتاريخ الإسلامي، وكان من بينها نسخ لكتب نادرة حوتها خزائن المكتبات العامة والخاصة.

■ عوامل نشأة التراث العربي الإسلامي المكتوب في إفريقيا وتطورها:

من أبرز العوامل التي أسهمت في ذلك: دخول الإسلام لإفريقيا؛ وما أحدثه فيها من تطور ديني وفكري، أدى إلى قيام نهضة علمية شاملة، وازدهار حركة التأليف والتدوين والكتابة والنسخ وتطورها.

قيام الممالك الإسلامية في إفريقيا: مكّنت الممالك للغة العربية، وجعلت منها لغتها الرسمية، ودوّنت بها تاريخها، إلى درجة أن بعض الباحثين أشار إلى أن شهرة الممالك الإسلامية التشادية لا ترجع فقط إلى عظمتها وطول عمرها - على الرغم من أهمية ذلك -؛ وإنما كذلك لكثرة ما خلّفت هذه الممالك من وثائق ومؤلفات وكتابات باللغة العربية^(١).

قيام جامعات ومدارس علمية نشطة: تكوّن فنّ الكتابة ونما في ظل مؤسسات التعليم والبحث التي انتشرت بانتشار الإسلام في أنحاء متفرقة من إفريقيا، وساعدت على نشر المخطوطات، ومن أبرز تلك الجامعات «جامعة تمبكتو» الشهيرة، وقد مثّلت «جامعة سنكوري» نموذجاً حياً يشهد على ازدهار صناعة المخطوطات في تمبكتو، وهناك «مدرسة بير» في القرن السابع عشر الميلادي و «مدرسة

كينيا، «عنوانه (أخبار لامو)، يرجع تاريخ تدوينه إلى العام ٧٦ هجري^(٢)، فهذا الكشف يُثبت قدم تاريخ تراث المخطوطات الإفريقية، وطول امتداده الزمني، كما أنه يغيّر فهماً آخر يتمثل في اعتقاد بعض الباحثين أن شرق إفريقيا كان تفاعلها مع الإسلام ضعيفاً، وبخاصة في مجال الكتابة والمخطوطات العربية.

كما أن دخول الإسلام في القرن السابع الميلادي لوسط إفريقيا التي تضم الغابون، الكونغو برازافيل، وإفريقيا الوسطى - بانغي، والكونغو كينشاسا، وغينيا الاستوائية، وساو تومي وبرنسيب، ومنطقة تشاد التي تُعد البوابة إلى باقي دول وسط إفريقيا؛ كان بداية لتاريخ المخطوط العربي الإسلامي فيها، «يؤكد كثير من الباحثين والمستشرقين الأوروبيين أن الشخصية التشادية قد تأثرت بالثقافة العربية الإسلامية منذ القرن السابع الميلادي، إلى درجة أن كثيراً من الدول التي قامت على أرض تشاد عبر القرون اللاحقة، مثل دول: كانم، وباقرمي، ووداي، اتخذت من اللغة العربية لغة رسمية لها^(٣)، فدولة كانم - مثلاً - كانت مراسلاتها ومحارمها (مراسيمها وتصاريحها) وخطاباتها جميعها باللغة العربية، كما دوّنت بها تاريخها ونمط إدارتها وحضارتها.

وأما غرب إفريقيا؛ فبالرغم من أن تاريخ المخطوطات العربية فيها جاء متأخراً نسبياً عن تاريخها في شرق إفريقيا، قبل القرن الثالث عشر الميلادي، فإنها شهدت ازدهاراً وتطوراً كبيرين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وكثرت فيهما

(١) الشيخ عبد الغفور البوسعيدى رئيس المجلس الإسلامى الأعلى فى كينيا، مجلة الوعي الإسلامى - العدد رقم ٥٢٦.

(٢) نشأة الوجود العربى الإسلامى فى وسط إفريقيا .. نشأة نموذجاً، أ.د. عبد السلام إبراهيم داود بغدادى.

<http://www.mubarak-inst.org>

(٣) د. محمد صالح أبوب: التغيرات الاجتماعية الكبرى، ص ٣.

الاهتمام باقتناء الكتب والمخطوطات: وتكوين المكتبات العامة والخاصة، وهو أمر ساد في كل حواضر العالم الإسلامي بما فيها حواضر الممالك الإسلامية في إفريقيا، يقول المستشرق آدم متز في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري): «أن أوروبا وقتها لم يكن بها أكثر من عدد محدود من المكتبات التابعة للأديرة. ولا يعرف التاريخ أمة اهتمت باقتناء الكتب والاعتزاز بها كما فعل المسلمون في عصور نهضتهم وازدهارها، فقد كان في كل بيت مكتبة، وكانت الأسر الغنية تتباهى بما لديها من مخطوطات نادرة وقيمة، وكان بعض التجار يسافرون إلى أقصى بقاع الأرض لكي يحصلوا على نسخة من مخطوط نادر أو حديث، وكان الخلفاء والأثرياء يدفعون بسخاء من أجل أي مخطوط جديد»^(١). وقد أصبحت تجارة الكتب والمخطوطات أكثر رواجاً وربحاً من غيرها، وكان الخطاطون يبيعون النسخ التي يصنعونها مقابل غرامات من الذهب. اكتشف صناعة الورق وانتشار حرفة (الوراقة) في العالم الإسلامي: فقد كان لاكتشاف صناعة الورق وانتشار حرفة (الوراقة) في العالم الإسلامي فضل في انتشار تأليف المخطوطات ونسخها، فقد انتشرت صناعة المخطوطات في المنطقة الساحلية الإفريقية، كما ساعد وصول أنواع الورق الجيد إلى هذه الحواضر من مدن جنوب أوروبا على ازدهار حركة التأليف وزيادة نشاطها في خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين.

تفرق المسلمين وهجرة العلماء من الأندلس بعد انحسار الدولة الإسلامية فيها: حيث انتشر العلماء في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي وبخاصة إفريقيا، وأسهموا في إحياء الحركة العلمية وانتشار المخطوطات.

كوكي» التي درس فيها كثير من طلبة العلم، في عاصمة البرنو «كوكو».

الحركات الدينية: مثل حركة الشيخ عثمان بن فوديو وغيرها، فقد جعلت تلك الحركات اللغة العربية لغتها الرسمية في القضاء والفتاوى وجميع العقود والمراسلات، كما أنها أسهمت بجهود كبيرة في حركتي التأليف والنسخ وتطورهما.

تشجيع الأمراء والسلطين والوزراء في الممالك الإسلامية: ورعايتهم ودعمهم للعلم والعلماء وطلبة العلم (نظام الرعاية)، حيث كانوا يخصّصون الهبات والعطايا للعلماء مقابل جهودهم العلمية والفكرية والقيام بالتأليف والكتابة، «وقد لاحظ ذلك حسن بن الوزان عند زيارته لمملكة مالي، وذكر «...أن الملك ينفق بسخاء على عدد كبير من الأطباء والقضاة ورجال الدين والفقهاء الآخرين»^(٢).

الشيخو والعلماء: فقد كان لجهودهم أثر قوي في نشر الإسلام والعلوم الدينية واللغة العربية، والاهتمام العام بها وبمراجعتها العلمية ومخطوطاتها في المجتمعات الإفريقية. فالناظر في الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا كما يقول بروفييسور عز الدين موسى: «يجد أن خير مقاييس لها هي: عدد العلماء، عدد الطلاب، وتنوع أماكن التعليم، حركة التمدن، الكتب الواردة، والمكتبات الخاصة، ودرجة اتساع التأليف. وفيما يخص عدد العلماء يذكر السعدي صاحب تاريخ السودان أنه عندما أسلم سلطان جني كان بها ٤٢٠٠ عالماً»^(٣).

(١) وحدة الحضارة الإسلامية. سيد حامد حريز عميد الدراسات العليا - جامعة إفريقيا العالمية. http://www.mubarak-inst.org/stud_reas/research_view.php?id=6

(٢) عز الدين عمر موسى: دراسات إسلامية غرب إفريقيا. دار الغرب الإسلامي - بيروت. ط ٢، ٢٠٠٣م - ص ١١٣.

(٣) عبقرية الحضارة الإسلامية وشواهدنا - منتدى التوحيد.

■ كنوز المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية:

مئات المكتبات الخاصة موزعة في بعض الدول الإفريقية، تشاد ونيجيريا والنيجر والكاميرون وبوركينا فاسو، وغيرها من الدول الإفريقية، تضم ما يقرب من (٥) ملايين مخطوطة، تنتمي إلى عصور قديمة، وحتى القرن التاسع عشر لم يتم استكشافها والبحث في مواضيعها حتى الآن.

وأكثر من (٨٠٠) كتاب ومخطوط، تمثل قيمة بالغة الأهمية لدراسة التراث الاجتماعي والثقافي لزنيجار وسواحل إفريقيا الشرقية، توجد لدى المحفوظات الوطنية في شرق إفريقيا.

وعشرات الآلاف من المخطوطات في مدينة تمبكتو (جوهرة الصحراء) بمالي، يعود عمرها لأكثر من ثمانية قرون، ويبلغ عدد المكتبات الخاصة في مالي وحدها قرابة (١٢٠) مكتبة خاصة، يضم ما يقرب من (٢٢) مكتبة منها مليون مخطوطة على أقل التقديرات.

ومن أشهر المكتبات العائلية في تمبكتو مكتبة الشيخ عبد القادر حيدرة التي افتتحت رسمياً للزوار سنة ٢٠٠٠م، وتحتضن المكتبة اليوم أكثر من (٩٠٠٠) مخطوطة ومادة مطبوعة، يعود أقدم مخطوطاتها إلى القرن التاسع الهجري، وتوارث هذا المخطوطات عائلة حيدرة منذ ما قبل القرن السادس عشر الميلادي.

وهناك «مكتبة أحمد بابا» التي تحولت إلى «مركز أحمد بابا» يضم (٣٠٠٠٠) مخطوطة، و«مكتبة فونديو قاطي»، وتضم (٧٠٢٨) مخطوطاً، و«مكتبة طاهر» التي تضم أكثر من (٢٧٠٠) مخطوط مكدسة بعضها فوق بعض داخل صناديق، إلى جانب أوعية معدنية.

مكتبة الإمام السيوطي في تمبكتو تحتوي على مخطوطات قيمة، منها نسخة من القرآن

التواصل المستمر بين العلماء المسلمين العرب في بلاد المغرب العربي والعلماء الأفارقة: وبخاصة في منطقة غرب إفريقيا، وقد كان لذلك أثر كبير في التطور العلمي، ونشاط الكتابة والتأليف.

اهتمام السلاطين والوزراء والأمراء في الدول الإسلامية في إفريقيا بالتراث المخطوط: والاحتراف بنفائس الفكر الحضاري، وحرصهم على البحث عنها واقتنائها وحفظها في ممالكهم ودولهم، ونشرها بين رعاياهم بإنشاء مكتبات للمساجد، وتزويد العلماء بالكتب كملك الكانم وملك غاوو، وكان هؤلاء بحكم قدراتهم المادية يهتمون بأربعة أمور: «النوادر من كتب القرنين الثاني والثالث للهجرة، والكتب التي بخطوط مؤلفيها من القرون المبكرة أيضاً، والنسخ التي كتبها خطاطون مشهورون من المصاحف ودواوين الشعر، والنسخ الخزائنية التي استسخوها لأنفسهم، أو أمروا بتزيينها فنياً لمكتباتهم»^(١).

■ واقع المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية اليوم، (نماذج ومشاهد):

ظلت المعارف الإسلامية ومخطوطاتها غالبية على المشهد الإفريقي حتى بدء الزحف الأوروبي، إلا أنه بعد غلبة الاستعمار وما أحدثه من تغيرات في أنظمة الممالك الإسلامية في الجوانب السياسية والتشريعية والتعليمية؛ أصاب الثقافة العربية الإسلامية ضعف شديد وانهيار، وهو ما أضعف الاهتمام بالمخطوطات وأفقدتها شيئاً من قيمتها العملية، فأوصدت عليها الخزائن وطُمر بعضها تحت التراب، وهي تعاني الإهمال وسوء الحفظ، ورداءة المكان.



مخطوطات نادرة لا حصر لها يتهددها التلف بمالي

المعاهد المتخصصة في الجامعات النيجيرية مثل معهد البحوث الإفريقية بجامعة أبادن. وأما في إقليم شرق إفريقيا؛ فإن عدم الوقوف على كثير من المخطوطات، وبالأخص تلك التي في حوزة أسر السلاطين الذين كانوا يحكمون في شرق إفريقيا، لا يعني عدم وجودها، وإن كانت لا تبلغ في عددها ما بلغته في غرب القارة.

ففي حوار مع «الجزيرة نت» قال مدير مركز البحوث مراد رضوان إنه على الرغم من عراقة الإسلام في الحبشة؛ فإن الظروف السياسية ساهمت في جهل العالم بمساهمات إثيوبيا في إثراء التراث الإسلامي. ومن المعروف أن مدينة «تمبين» في «تقراي» كانت مستودعاً للوثائق التاريخية للحبشة قبل الإسلام وبعده، كما يقول عبد الله شريف، وهو من المهتمين بالمخطوطات العربية الإسلامية في إثيوبيا، ويقدر أحد الباحثين النصارى أن ما نسبته ١٠٠ في المائة من التاريخ الإثيوبي في القرون الوسطى مكتوب باللغة العربية، مما يعني أن العلماء العرب هم من كان لهم السبق في كتابة التاريخ الإثيوبي.

الكريم يعود تاريخها إلى القرن السادس عشر، كما تضم المكتبة مخطوطاً نادراً في علم الفلك، إلى جانب مخطوطات أخرى تتناول الرياضيات والتاريخ والطب والفلسفة وغيرها، وأقدم مخطوطات في هذه المكتبة يعود تاريخها إلى القرن ١٢ الميلادي.

كما توجد في السنغال مجموعات من المخطوطات النادرة ضمن عدد من المكتبات الخاصة.

ومن أبرز بيوت العلماء التي تحتفظ بمجموعات من المخطوطات العربية الإسلامية في نيجيريا: بيت وزير صكوتو الوزير جنيد، وبيت الشيخ محمد ناصر الدين كبرا بمدينة كانو الذي يحوي أكثر من ألفي مخطوط، وقصر أمير كانو، وقصر السلطان أبو بكر بمدينة صوكوتو، وقصر شيخ برنو سلطان برنو بمدينة ميدو غري، وكلها بمناطق شمال نيجيريا.

كما أن المتاحف الوطنية في نيجيريا تحتفظ ببعض المخطوطات، مثل: المتحف القومي بمدينة جوس، والمتحف الوطني بمدينة كادونا، ودار الوثائق القومية بمدينة صوكوتو شمال نيجيريا، وبعض المكتبات العامة والجامعية بها عدد من تلك المخطوطات، كمكتبة جامعة أبادن الشهيرة، إضافة إلى بعض



إحدى مكتبات المخطوطات العديدة في مدينة تمبكتو



للحصول على مواد تراثية من منطقته لعرضها كمجموعة دائمة، ويحتوي المعرض الدائم على أرشيف غني من المخطوطات التاريخية المهمة وغيرها.

وتقع في تنزانيا بعض المخطوطات التراثية النادرة في مكتبة جامعة دار السلام، كما توجد في زنجبار العشرات من المخطوطات العربية والسواحلية النادرة.

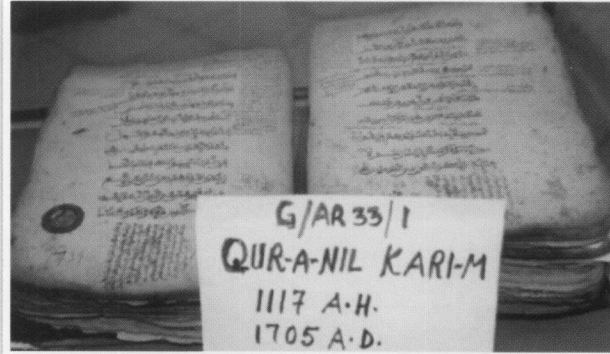
وفي «مسجد ماليه» الواقع في الضاحية الإسلامية «كيب ماليز» في العاصمة التشريعية لجمهورية جنوب إفريقيا «كيب تاون»؛ تحوي خزانة زجاجية مغلقة على أول مصحف مخطوط في البلاد، قام بكتابته الشيخ يوسف الرفاعي الأندلسي الأصل، والذي هاجر إلى جنوب إفريقيا عام ١٧٩٤م،...^(١).

إلا أنه بالرغم من الجهود المبذولة محلياً وعالمياً فإن معظم المخطوطات لم يتم حصرها، ويحتاج ما تم حصره إلى الفهرسة والتحقيق والنشر، يوضح أستاذ اللغة العربية في «المدرسة العليا» في ليون وأحد مطلقي برنامج «فيكماس» (تقويم ونشر المخطوطات العربية لمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء) قائلاً: «إن ٢٥٪ فقط منها موضع جرد، و ١٠٪ موضع فهرسة، فيما ٤٠٪ ما زال داخل حقائق من خشب أو حديد».

هذا غير المخطوطات المخبأة في المنازل والتي لا يرغب المحققون بها رفع اليد عنها، وهو ما يحول دون وصول الباحثين والدارسين أو غيرهم من المهتمين إليها.

وثمة إشكالية أخرى ترتبط بعملية التصنيف؛ حيث يتم في الغالب باللغة الأجنبية.

ويذكر الأكاديمي والباحث في شؤون التراث الإثيوبي، ورئيس شعبة اللغة العربية في جامعة أديس أبابا الأستاذ محمد سعيد أنه «لم يتم الاعتراف بالتراث الإسلامي على الإطلاق



مصحف خطي مؤرخ ١١١٧هـ من مجموعة كادونا

على أنه تراث إثيوبي في السابق إلا في الوقت الحالي؛ على اعتبار أنه جزء من التراث الوطني العام،...^(٢).

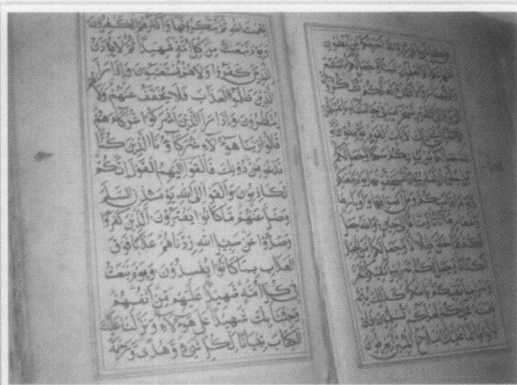
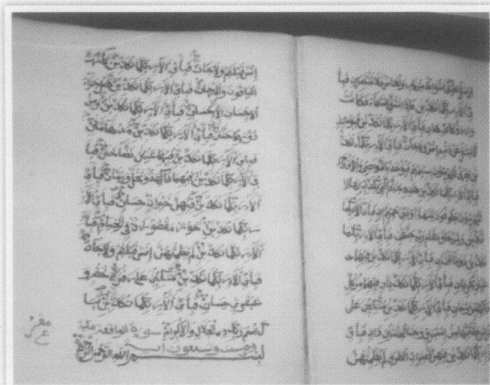
ويتوقع أن يؤدي الكشف الأثري الأخير لموقع مملكة «شوا» الإسلامية القديمة، والتي قامت في إثيوبيا وبلغت أوج عظمتها في القرن السادس الهجري في منطقة «إيفات» بوسط إثيوبيا، إلى معرفة المزيد عن التراث الإسلامي، والعثور على كنوز من المخطوطات العربية الإسلامية فيها.

متحف المخطوطات الإسلامية
بهر Melikian Collection^(٣)؛

افتتح متحف مدينة هرر في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ٢٠٠٨م بحضور مؤسسه السيد عبد الله علي شريف الذي كافح طويلاً منذ مطلع سنة ١٩٩٠م

(١) الأكاديمي والباحث في شؤون التراث الإثيوبي ورئيس شعبة اللغة العربية في جامعة أديس أبابا: محمد سعيد. عكاظ - الخميس.

(٢) <http://www.quran-arabita.com/vb/showthread.php?p=5099>
(٣) <http://i826.photobucket.com/albums/zz181/DrSuheil/QMC/Hara3.jpg>



بعض المخطوطات العربية الإسلامية النادرة في متحف سان تكلاباثيويا

■ مشكلات تواجه المخطوطات مواجهة التلف والضياع؛

يمكن التعويض عنها، وتمثل حقبة تاريخية من الحضارة الإسلامية والثقافة العربية، منها ما يمثل الدور الفريد لإفريقيا الغربية، تواجه خطر التلف والاندثار بسبب سوء الحفظ.

يقدر بعض الخبراء أن مخطوطات نادرة ونصوص إسلامية فريدة لا تُقدّر بقيمة ولا



نسخة أصلية لمصحف مجزأ (٣٠ جزءاً) مع حافظته الجلدية، من مخطوطات متحف مينة «هر» التي تعد واحدة من مراكز الحضارة الإسلامية المهمة في شرق إفريقيا، وقد وجدت بعض نسخ القرآن الكريم من تراث مخطوطات المنطقة ضمن مجموعات المخطوطات في أوروبا وأمريكا

إفريقيا بعامة والمخطوطات بخاصة جرائم عديدة متعمدة: إذ تعرضت للنهب والحرق والإتلاف في فترات تاريخية متلاحقة. من ذلك:

✱ قيام الجنرال الفرنسي أرشبنار بنهب كنوز المخطوطات من المكتبات الخاصة، ومنها مكتبة أسرة جاليا بسيقو، وإلقاء كميات منها في النهر، وإحراق بعضها، وذلك في خلال فترات الحروب والغزوات القبلية.

✱ التدمير والإحراق الذي أصاب تراث المخطوطات العربية الإسلامية على يد سلطان مراکش في خلال هجماته على ملوك صنغي.

✱ الكارثة التي أصابت المخطوطات العربية الإسلامية في أثناء حركة القضاء على تجارة الرق، في الفترة ما بين القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي؛ حيث أُلّف الكثير منها.

✱ الإتلاف الذي حصل لمعظم وثائق دول «الهوسا» ومؤلفاتها إبان محاربة امبراطورية صوكوتو للممالك الهوساوية.

✱ سرقة كثير من المخطوطات مؤخراً من قبل قوات الاحتلال الأوروبية التي قضت على الممالك ودمرت المدن الإسلامية الزاهرة في غرب إفريقيا وغيرها.

✱ الجريمة التاريخية التي قام بها امبراطور الحبشة هيلي سيلاسي لإزالة المعالم الإسلامية الأثرية، وإتلاف المصادر التاريخية والعلمية للحضارة الإسلامية في الحبشة.

هذا غير أعمال تخريب ونهب وسرقات فردية أو منظمة تجري بصورة مستمرة في غفلة من الرقابة والقانون!

قسّم بعض الباحثين المشكلات التي تتعرض لها المخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا إلى نوعين^(١):

١ - مشكلات مباشرة: تتمثل في خطر الأضرار البيئية والطبيعية: كالرطوبة والضوء والحرارة، وكذلك خطر الأضرار الكيميائية، مثل الغازات وغيرها، إضافة إلى الأخطار البيولوجية، كالأضرار التي تسببها بعض الكائنات الحية، مثل الحشرات والقوارض والفطريات والبكتيريا والإنسان أيضاً.

٢ - مشكلات غير مباشرة: تتمثل في عدم الاهتمام بتراثنا العربي الإسلامي: ويرجع ذلك للجهل بقيمته كما يعود إلى أسباب سياسية أو دينية أو أحوال مادية، أو غير ذلك. إضافة إلى عدم توفر الأجهزة اللازمة والمواد الضرورية للحفاظ على المخطوطات وصيانتها، وعدم توفر الكوادر المتخصصة بالقدر الكافي.

يشير إمبراكي إلى بعض المشكلات الخاصة المتعلقة بحفظ المخطوطات في الغرب الإفريقي، والتي لها أكثر من دلالة، قائلاً: «أن السلطات الاستعمارية هي صاحبة المبادرة الأولى في جمع المخطوطات المتوفرة لدينا، وحفظها بطريقة منتظمة بهدف دراسة المجتمعات الإفريقية، ولكن يبدو أن هذا الاهتمام كان محصوراً في بعضهم وفي نوع من المخطوطات»^(٢).

■ جرائم لا تُنسى:

ارتكبت في حق التراث الإسلامي في

(١) ينصرف من مقدمة كتاب: المخطوط العربي بين الوصف والتحليل. الباحثة/ انتصار العمري.

(٢) الباحث في قسم اللغات والحضارات بالمعهد الأساسي لإفريقيا السوداء، بجامعة شيخ أنت جوب في دكار، الدكتور خديم محمد إمبراكي <http://news.bdr130.net/news7123.html>

✱ إنشاء العديد من الأقسام والمكتبات المتخصصة بالجامعات والمراكز والمعاهد، والمتاحف الوطنية في معظم الدول الإفريقية، كما في نيجيريا ومالي وغيرها. ✱ تبني مشروعات لحماية المخطوطات وأرشفتها، منها: «مشروع حماية مكتبات الصحراء» الذي تموله الحكومة الإيطالية، وجهود، مؤسسة الفرقان الإسلامي في لندن التي افتتحتها في نهاية الثمانينيات الشيخ أحمد زكي يمانى، التي قامت بعمل "survey" أو الفهرس الشامل للمخطوطات الإسلامية في العالم وخصوصاً في إفريقيا جنوب الصحراء.

كما قامت جامعة الدول العربية بطبع كتاب «المخطوطات الإفريقية بالحرف العربي» في ٥٠٠ نسخة، وتم تقديمها إلى الشخصيات والمؤسسات المهمة بالشؤون الثقافية الإفريقية والعربية.

✱ تأهيل الكوادر الفنية وتدريبها لترميم المخطوطات والكتب والوثائق وحفظها، وإنشاء أكاديميات أو أقسام متخصصة لذلك ببعض المراكز القائمة، كما هو الشأن في قسم الترميم التابع لمكتبة «ماما حيدرة» في مالي. ويذكر في ذلك قيام مركز جمعة للثقافة والتراث بدبي في الإمارات العربية المتحدة بإهداء ٢٤ جهازاً آلياً للترميم إلى مراكز بحوث ومؤسسات أكاديمية وعلمية في ثماني عشرة دولة عربية وإسلامية؛ منها في إفريقيا: الجزائر - السودان - السنغال - الكويت - النيجر - تونس - جيبوتي - ليبيا - مالي - موريتانيا، وتقديم الاستشارات والخبرات والقيام بالدورات التدريبية محلياً وعربياً ودولياً في مجال الترميم، حيث قدم التدريب لأكثر من ١٦ مركزاً عربياً وإسلامياً.

■ إنقاذ المخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا؛

إن عملية إنقاذ المخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا عملية شاقة، ذات أبعاد متعددة: قانونية واجتماعية وتربوية وإعلامية، تتطلب خبرات فنية وإمكانات مادية وتقنية عالية، كما تحتاج إلى جهود مشتركة (محلياً وإقليمياً وعالمياً) من الجهات والمؤسسات المعنية الرسمية وغيرها، بدءاً بمراحل التهيئة والتوعية الإعلامية والاجتماعية، والترتيبات التشريعية والقانونية، ثم عمليات جمع المخطوطات وتنظيمها وفهرستها، ثم الصيانة والترميم والتجليد، تأتي بعد ذلك عملية تصويرها، ثم تحقيقها ونشرها ليستفيد منها الجميع.

■ جهود عملية لإنقاذ المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية وحفظها؛

شهدت السنوات الأخيرة جهوداً مكثفة وتعاوناً إقليمياً وعالمياً لتوفير الدعم المالي والفني وغيره للعناية بالمخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا، شاركت فيه دول ومنظمات عالمية وإقليمية، منها: اليونسكو، والإيسيسكو (المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة)، وكثير من المراكز والمعاهد والمؤسسات والجامعات، وبعض المؤسسات الغربية.

وتم تنفيذ عدد من المشروعات والخطط والبرامج، منها:

✱ عقد بعض المؤتمرات، وإقامة بعض الندوات والمعارض المحلية والعالمية للتعريف بتراث المخطوطات، كان آخرها الندوة التي أقامتها جامعة النيجر في أبريل عام ٢٠١٠م

والدين والعقيدة، وقد أشار عدد من الباحثين والعلماء إلى ما وقع من تحوير وتزييف للتاريخ الإسلامي لإفريقيا.

■ مراحل مقترحة لخطة إنقاذ تراث المخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا:

أولاً: عملية الاستكشاف والجمع والحصر والتسجيل: وقد كان من أهم توصيات اجتماعات مؤتمر كوت ديفوار الذي عُقد في أبيديجان (ما بين ٢١ أغسطس إلى ٥ سبتمبر ١٩٦٦م)، ومؤتمر تمبكتو في مالي (ما بين ٢٠ نوفمبر إلى ٧ ديسمبر ١٩٦٧م) العمل على جمع المخطوطات، والذي لا يمكن أن يتحقق إلا بتأسيس مراكز ومعاهد متخصصة لتقوم بجمع المصادر الأساسية ودراستها والعناية بالبحوث، ويتطلب ذلك البحث عن أماكن وجود المخطوطات والوثائق التراثية الإسلامية، وعمل خريطة تفصيلية بذلك.

ثانياً: عملية الترميم والمعالجة والحفظ: فالورق الذي كُتبت عليه المخطوطات يحتاج إلى عناية خاصة وترميم وتجليد فني، ومعالجات كيميائية للترميم النسيجي للمخطوطات التالفة، وذلك يتطلب توفير مختبرات خاصة بالترميم، وتوفير الفنيين وتدريبهم. كما تحتاج إلى مخازن معينة بمواصفات فنية ووظيفية خاصة.

ثالثاً: عملية الإعداد الفني: الإعداد الفني والحفظ والقيود (الأرشفة والنشر الإلكتروني): بتطبيق المعايير العالمية للفهرسة وتوحيدها، وتسهيل الحصول على الصور الرقمية والميكرو فيلم للمخطوطات والأقراص المدمجة، وذلك حسب النظام العالمي

* إنشاء أقسام علمية متخصصة في بعض الجامعات الإفريقية، وتدريب الباحثين وتأهيلهم.

* إصدار قوانين وتشريعات، وبخاصة فيما يتعلق بتحويل المخطوطات الخاصة إلى الجهات الرسمية، وحماية المخطوطات، وحقوق الملكية الفكرية.

* ومن الخدمات المهمة التي قُدمت لنشر التراث إعداد الدراسات والموسوعات المختلفة للتعريف بالمخطوط، وإصدار المجلات والدوريات المتخصصة في دراسة المخطوطات.

* جهود جمعية المخطوطات الإسلامية (tima) والتي تعد من الجمعيات النشطة في خدمة المخطوطات والتي تعمل حالياً على تطوير نظام إدارة المخطوطات العربية في غرب إفريقيا. مستخدمة برنامجاً فعالاً للأرشفة، تتوفر فيه المزايا التي تساعد المفهرسين، مع تعدد العاملين والوسائط والإمكانات، وهو برنامج (داتا بيز)، وتوفره مجاناً على موقعها على الشبكة العنكبوتية. * مشروع اليونسكو الرامي إلى إعادة كتابة تاريخ إفريقيا العام؛ حيث جمعت خبراء الدول المختلفة لتحديد شروط تحرير هذا التاريخ، ومن أهمها الوثائق الصامته، والاعتماد على المصادر المكتوبة عن تاريخ إفريقيا بما فيها المخطوطات.

* جهود بعض المستشرقين في جمع المخطوطات العربية الإسلامية ونقلها إلى الغرب، والقيام بحفظها وفهرستها، وأحياناً تحقيق بعضها ونشره.

إلا أن الأمانة العلمية اقتضي إعادة النظر في جهود المستشرقين وتقويمها لأسباب عدة، وبخاصة ما يتصل بالتاريخ الإسلامي لإفريقيا،

العربية الإسلامية في إفريقيا ترجع إلى قيمتها التأصيلية، ومرجعيتها العامة المعتمدة على المصادر الرئيسة (الدين واللغة) اللذين يكسبانها تميزاً نوعياً في طبيعة منهجيتها ومكوناتها الثقافية والفكرية وأطرها العامة، والغاية من تأليفها ومنهجيتها، فهي بذلك تتميز عن سائر المخطوطات الإفريقية، كما تتميز عن المخطوطات العربية وإن اشتركت مع كل منهما في وجه من الوجوه.

رابعاً: أهميتها التاريخية: يتمثل ذلك في «البعد الزمني» لتاريخ المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية، ويتضمن:

أ - الامتداد التاريخي: فالمخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية بصورة عامة تمتد على مدى خمسة عشر قرناً من الزمان، وهو ما يجعل منها سجلاً حافلاً بالمعلومات والوقائع والشواهد. ويجعلها من أغنى مصادر التاريخ وأوثقها للقارة الإفريقية.

ب - طبيعة المراحل التاريخية لهذه المخطوطات: لقد واكبت المخطوطات أهم مراحل تاريخ القارة الإفريقية، وأكثرها عطاءً، وكانت وليدة عصر ازدهار الحضارة الإسلامية في الوقت الذي كانت أوروبا تتخبط في ظلمات القرون الوسطى.

ج - المرجعية التاريخية: تشكل المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية مرجعية أساسية للباحثين والمهتمين بالدراسات التاريخية، وتوثيق الوقائع والحقائق والأحداث، وهي تقدم لنا أهم تركة تراثية فيما ما ترويه عن بدايات الإسلام في إفريقيا وتاريخه إذ تبين مضامين النصوص والمخطوطات بشكل جلي، وخاصة على صعيد الشرائع القانونية والسياسية، أثر رغبة الإفريقيين الغربيين في اعتناق الدين الإسلامي، وتؤكد هذه المخطوطات أن معظم

«إساد»^(١)، واتباع أفضل النظم التقنية لإدارة المخطوطات وتمكين الاستفادة منها علمياً، كذلك إنشاء آلية لحماية حقوق المؤسسات التي تمتلك المخطوطات.

رابعاً: عملية دراسة المخطوطات: وذلك بتشجيع المنح الدراسية ذات الصلة بتحقيق المخطوطات ودراسة موضوعاتها، وما يعنيه ذلك من ضبط للنص والتعليق عليه، والدلالة على القضايا العلمية، والتعريف بمؤلفي هذه النصوص.

خامساً: نشره وتوظيفه: وهي عمليات ما بعد النص والدرس المباشر: من حيث توظيفه في إعادة كتابة التاريخ الإسلامي الإفريقي، وجعله جزءاً من نسيج الحاضر، وحافزاً نحو صناعة المستقبل.

■ أهمية المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية:

أولاً: القيمة الذاتية: المخطوط يتضمن قيمة ذاتية ترجع إلى كونه نوعاً من أوعية المعلومات والعلم والمعرفة متميزاً عن غيره، فهو - بخلاف الكتاب المطبوع - يحمل قيمة ذاتية كبيرة مهما كثرت نسخه، بالإضافة إلى استحالة تعويضه في حال الضياع أو الاندثار.

ثانياً: مجال للدراسات المخطوطية: فالمخطوط الأصلي يُعد مجالاً خصباً لدراسات عدة تتصل بعلم المخطوطات أو ما يُسمى «الكوديكولوجيا»، وعلم تاريخ النصوص، و «الببليوغرافيا»، وتُعد دراسة «نص المخطوط» أهم تلك الدراسات، بل ربما كانت الغاية العليا التي كثيراً ما تُوظف من أجلها الدراسات الأخرى هي دراسة المخطوط «فيلولوجياً».

ثالثاً: الخصوصية: خصوصية المخطوطات

(١) «إساد»: General International Standard Archival Description



تاريخ إفريقيا الإسلامي ونشره أمر له أهميته حتى تعرف الأجيال الإفريقية الحديثة تاريخ قارتها المسلمة، وتعمل على تصحيح ما زيفته الدوائر الغربية وكثير من الأقلام الحاقدة لطمس هوية القارة المسلمة، وقطع انتمائها وتعديل مسيرة حضارتها. فإحياء تاريخ إفريقيا الإسلامي استعادة لشخصيتها الإسلامية وقوتها، وتأكيد لانتمائها، يجعلها تستأنف مسيرتها التاريخية وإسهاماتها في الحضارة العالمية، وإن من أهم الشروط لأي جهد علمي لإعادة كتابة تاريخ إفريقيا، حتى يكون جهداً علمياً أصيلاً، أن يعتمد على المصادر المكتوبة والموثوق منها بصورة أساسية، وأوثق ما في ذلك وأكثره سعة وشمولاً المخطوطات الإسلامية العربية، وهو ما أكده الخبراء في ندواتهم ومؤتمراتهم، وقد خرج مؤتمر أبيديجان في كوت ديفوار (ما بين ٢١ أغسطس إلى ٥ سبتمبر ١٩٦٦م)، ومدينة تمبكتو (ما بين ٣٠ نوفمبر إلى ٧ ديسمبر ١٩٦٧م).

و - تنوع مصادرها: فالمخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية متعددة المصادر المكانية، فهي ترتبط بعدة دوائر جغرافية متسعة، تشمل معظم أرجاء القارة الإفريقية، واتساع بعدها المكاني - باتساع القارة - انعكس عليها كماً وكيفاً من حيث حجمها وتنوعها وراثتها، فاختلقت في ذلك باختلاف البيئات الإفريقية. ز - دلالتها على عمق التفاعل: تعكس المخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا في كثرتها وتنوعها وقيمتها محتوياتها دلالة قوية على عمق التفاعل الإفريقي مع الإسلام ولغته العربية، ولا تكاد تخلو حاضرة من حواضر الممالك الإسلامية في إفريقيا من وجود كمٍّ من المخطوطات العربية الإسلامية، وهو ما يكشف عن تفاعل نفسي وفكري عميق، امتدت

أجزاء القارة، كزنجبار والسودان وغيرها، بلاد مسلمة منذ القرن الأول الهجري؛ إذ ترصد لنا المخطوطات العربية الإسلامية مثل (مخطوطتي كلوا وباتي) مشاهد تاريخية للهجرات العربية الإسلامية التي نتج عنها بناء بعض المدن الساحلية المهمة، مثل «مومباسا» و «زنجبار» و «كلوا» و «مالندي»، وعن وصول الإسلام إلى بلاد «هوسا» التي تفصلها عن الجزيرة العربية مساحات شاسعة من اليابسة، عبر هجرات مجموعات سكانية وسيطة: كالبربر والمالينكا والفولاني القاديين من أقاصي الغرب، بالإضافة إلى البرنو، كما تكشف عن تميز الهجرات إلى بلاد «هوسا» بطابعها الدعوي والعلمي أكثر من الهجرات الأخرى، وهو ما أدى إلى عمق التأثير والتحول النوعي الذي أحدثه فيما يتصل بالدعوة ونشر العلم.

د - أهم مكونات تاريخ القارة وعوامل وحدتها ونهضتها: المخطوطات بصفتها شواهد تاريخية موثوقة تعطي مؤشراً لحقيقة سعى بعضهم ولا يزال يسعى إلى طمسها، وبخاصة الدوائر الغربية والتتصيرية، وهي أن الإسلام أهم المكونات الأساسية في تاريخ الشعوب الإفريقية، بل أهم مرتكز لنهضتها في حاضرها ومستقبلها، وأن «الحضارة الإسلامية والمد الإسلامي في إفريقيا يبيان الدعامة الرئيسية في خلق وحدة فكرية وعقدية، وفي بلورة كيان ثقافي واجتماعي لا يخلو من أبعاد سياسية، وهذا ليس بالنسبة لإفريقيا فقط، بل بالنسبة للقارات المعروفة قديماً جميعها...»^(١).

هـ - إعادة كتابة التاريخ: إن إعادة كتابة

(١) وحدة الحضارة الإسلامية في إفريقيا بين حسن الوزان وتحفة ابن بطوطة ورحلات تشين خه وسفالية أحمد بن ماجد. بروفسور سيد حامد حريز عميد الدراسات العليا - جامعة إفريقيا العالمية <http://www.mubarak-inst.org>.

وتطالعك في بعضها أحكام قانونية بشأن حياة اليهود والمسيحيين «المرتدين عن الدين»، ويشهد بعضها على النشاط التجاري الكثيف في إفريقيا والرحلات والملاحة.

خامساً: تجسيد الانتماء وتأكيد الهوية الإسلامية العربية للقارة الإفريقية: إن أكثر ما تتأكد به هوية أمة ويتجسد به عمق انتمائها الدين واللغة والفكر والثقافة، والمخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية بهذه العناصر تصل القارة بالأمة الإسلامية، والعربية منها بصورة خاصة، بأوثق الصلات وأقوى عوامل الانتماء والترابط العميق (الدين واللغة)، بل ربما كانت القارة الإفريقية المسلمة أسبق القارات تاريخياً في تحقيق هذا الانتماء، واكتساب هويتها الإسلامية، حتى أصبح الإسلام يوجه نظم الحياة وسلوك الإنسان فيها توجيهاً مباشراً وكاملاً، يؤكد الشيخ دان فوديو (١٧٥٤م - ١٨١٧م) في مذكراته، أنه وحتى وصول الأوروبيين «كان الفكر الإفريقي يبلور حباً للإسلام المنفتح على العالمية»^(١).

ففي زيمبابوي مثلاً - كما في غيرها من أنحاء إفريقيا - نقف على مخطوطات نادرة، نتحدث عن العلاقات الوثيقة التي تربط بين الإسلام والقبائل الإفريقية، كقبائل «الزولو» و«الشنونا»^(٢).

المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية معالم حضارة وأسس بناء لمستقبل القارة: بالتأمل في هذا التراث المخطوط بشواهد التاريخة القوية ونماذجه الحية، يقف على ما وصل إليه العلماء الأفارقة المسلمون وشعوب القارة في مجال الإسهام الحضاري للإسلام والثقافة العربية، وفي تطوير تلك الحضارة

آثاره إلى سلوك الإنسان ونشاطه في جوانب الحياة المختلفة، ولا يزال هذا التفاعل قوياً على الرغم مما بذلته الدوائر الغربية في زمن الاحتلال وما بعده من جهود لإخماده وإحلال روح الإعجاب بحضارة الغرب والتمكين لذلك في نفوس الناشئة من الأجيال الإفريقية وعقولها، فهي لا تملك ما وجده الأفارقة وغيرهم من الشعوب الأخرى في الإسلام؛ من كونه دين الفطرة والإنسانية الذي يتحقق معه الانسجام النفسي والتوافق الفكري بصورة تلقائية وعميقة.

رابعاً: الأهمية العلمية: تبين لنا هذه المخطوطات أهمية ما تركه علماء إفريقيا من عطاءات ثرية ومتنوعة في مختلف مجالات العلوم والآداب، فإذا كانت بعض المجموعات - وليس كلها - يغلب عليها طابع معرفي محدد، كأن تكون في علوم الدين مثلاً أو الفقه أو اللغة أو الأدب، فإن المخطوطات العربية الإسلامية في إفريقيا قد تناولت علوم التراث كلها، فالملايين منها التي اكتشفت رصدت نشاط الإنسان العلمي في إفريقيا لخمسة عشر قرناً من الزمان، وتناولت المعارف الدينية والتطبيقية والثقافية والطبيعية، وعرضت لموضوعات عديدة في العلوم الدينية واللغة، والحكم والسياسة والقانون، والتاريخ العام، وتاريخ الممالك في إفريقيا، وتعاقب الملوك والسلاطين وسيرهم، والحركات الجهادية والإصلاحية، كما نجد طائفة منها في الرياضيات والفلك والطب، يقول أمين مكتبة الكونجرس الأميركي: «بإمكانني أن أراهن على أن بعض مواضيع هذه الكتب تقدم مفاتيح لفهم تلك الأمراض التي لم نسمع حتى بها»، ونجد أمامنا أبحاثاً في الحكم السليم، ونصوصاً، وملخصاً لدستور الصيدلة، والرياضيات،

(١) <http://www.shamela.ws> برنامج المكتبة الشاملة.

(٢) <http://almoslim.net/node/107740>



والمحافظة عليها ودراستها ونشرها .

وتتضح معاني الحضارة الإسلامية ومعالمها فيما تضمنته المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية من دراسات في القرآن الكريم، وفي الحديث النبوي الشريف، وفي السيرة النبوية، وفي المعارف والعلوم الإسلامية، وفي الآداب الرسمية والشعبية المدونة والمقيدة بالكتابة، وتنعكس كذلك فيما وصفته من سلوك المسلمين ونظم حياتهم، وعاداتهم وأعرافهم .

فالباحث يمكنه من خلال دراسة هذه المخطوطات الوقوف على دلالات حضارية واسعة في عمق المفاهيم التي تحكم الممارسات، وتوجه السلوك العام في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ من التفاصيل الفقهية والتشريعات القانونية العملية، فهي تقف شاهدة على ما أحدثه الإسلام من تحولات حضارية عميقة، وما أنشأته فيها النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ونماذج الحكم التي تتسم بقيم العدالة والمساواة في إفريقيا، وقد شهد الواقع هذه النظم التي ظلت حتى دخول الاستعمار تستمد شرعيتها وأحكامها وأساليبها من نظم الحكم التي كانت سائدة في العالم الإسلامي.

كما يُعطي اتساع رقعة المخطوطات في أنحاء القارة المختلفة دلالة على سعة دائرة انتشار الحضارة الإسلامية في إفريقيا، فقد أبرزت المخطوطات ذلك من خلال امتداد رقعتها الجغرافية من جنوب إفريقيا وموزمبيق جنوباً إلى أقصى القارة شمالاً، ومن سواحلها شرقاً إلى السنغال غرباً، وهي بذلك تغطي القارة بأكملها .

إن هذه المعالم التي تجسدها المخطوطات العربية الإسلامية الإفريقية للحضارة الإسلامية والمد الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا؛ تؤكد أن هذه المقومات ستظل الدعامة الرئيسة في ترسيخ وحدة فكرية وعقدية، وتطوير كيان ثقافي واجتماعي وسياسي واحد، وقيام نظم راشدة للحكم والإدارة في إفريقيا تحقق لها أكبر قدر من الانسجام والاستقرار والنماء، فعهد القارة بالإسلام والممالك الإسلامية ليس ببعيد، والجذور لا تزال قوية راسخة، ولا يزال صدى القرآن يتردد، والأذان يُرفع، في أنحاء القارة، ومخطوطاتها العربية الإسلامية تراث غني يجسد المسيرة التاريخية لماضيها وحاضرها ومستقبلها المشرق.

